

نقبل منهم ...

للاستاذ ثروت أباظة

—

تلقينا (الرسالة) ونحن في مجلس كأننا أعدنا لها ، فتناولها قارىء منا وأخذ يتلو علينا مقالاتها متقللين علم وفن وأدب حتى بلغ الصفحة الأخيرة ، فطوبنا الرسالة — لازالت منشورة — ثم أخذنا نجمل الحديث بينما نخفف به ثقل الوقت ونعصر طوله . وكان في شعر المجلة أبيات من شاعر إلى ابنه يشبه الأبوة الرحيمة ، ويقعد به الرجا المأمول ، فقال أدب جالس :

— عجيب أمر هذه الأبوة ! كانت في صدر الزمان قداسة يشرف الابن أن يتطلع إليها ويستمتع إلى ممثلها كأنه إله لا يصدر في أفعاله وأقواله إلا عن العوالم المحض . وكان الأب من ناحيته يرث القسوة عن أبيه وأجداده ، فيبديها لأولاده ، ولوترك لمعاطفته لما بدا منه غير الرحمة . وهكذا قام الصراع في قلب الوالد بين قسوة دخيلة ورحمة أصيلة ، وظلت المعاطفتان تصطرعان منذ عهد الرومان أيام كان الوالد يملك الحياة والموت على أهله حتى اليوم ، إذ نرى الوالد يتوجه إلى ابنه بهذا الحب الصافي وبذلك الرجا الواسع الذي يملقه عليه ... وهكذا تقلبت الرحمة الموهوبة على القسوة المكسوبة ، وانطلقت النفوس لا يقيدوها عرف ، فأبان الوالد عن خلجاته ، وكشف للابن عن نبضاته ، فانسجم البيت على حب ظاهر لا قسوة فيه ولا عنف . قلت : جميل أن يظهر الوالد عواطفه ، وجميل أن يأخذ ولده بالابن ... ولكن إذا شب الولد عن الطوق ووالده لا يزال يأخذه بالرحمة ، لا يهديه إذا ضل ، ولا يماقيه إذا زل ، وأمه لا تنفك تامله بالحنان ؟ فهل يمكن أن يكون هذا الابن نكاة لوالديه عند الكبر ، أو مفخرة لها يوم الفخر ؟ ... أتبتت الأيام ، وما تزال تثبت ، أن هذا لا يكون وأن هذا الابن ذا الملعقة الذهبية بتمرد على أبيه إذا قدم له الطعام في ملعة من فضة ... فهو يستولى الدعة ولا يعرف من حياته غير مائدة شهية ، وفراش وثير ، وغيد ملاح ، وكؤوس دهاق ... فالأبوة

على هذا اللين قسوة ... إنما تتمثل الرحمة في عصا الوالد التي تقود الابن إلى السبيل الأقوم .

— لقد تحدثت فأهبت ، ولكنك أطلقت قولك كن يلقى محاضرة لا يعرف موضوعها ، فأنا حين أقول إن النفوس أرسلت على طبيعتها لم أقصد بذلك أن يضع الوالد ولده على كرسي ثم يسمعه عبارات الدبح والحب ... إن الحبيب لا يطبق هذا من حبيبه ، فكيف والأمير بين ابن وأب ؟ إن الابن لا يقبل هذا الثناء فهو يعرف عن حب أبيه إياه ما لا يحتاج معه إلى هذا التبيان ؛ بل لعل القول يفض من قيمة هذه المعاطفة في نظر الابن ... إنما أقصد إلى الرحمة الصادقة ... أما ما كان في غابر العصور من قسوة فهو يخالف الطبيعة ويرهن الوالد والابن جيما .

— نسيت يا صديق أننا نتكلم عن قصيدة من شاعر إلى ابنه . أنساني طول المناقشة سبب النقاش فأرني على حين جبهني مناقشي به ، وكان بالمجلس شيخ وقور أخذ يستمع إلى الحوار في إنصات ولذة دون أن يتكلم ، ولكنه لما سمع الإجابة الأخيرة ورأى حيرتي شارك في الحديث :

— أمنكما والد ؟

قلت — إنما نحن أبناء .

قال — إن كليكما قد أصاب في قوله .. وكأني بكما وأنا تناقشان تمثلان الصراع الذي كان قائما في صدر الوالد قبل أن تغلب الرحمة ، ولكن الأب الحق وسط بين قوليكما ؛ فالرحمة الدائمة والقسوة الدائمة كلتا الخاتين فيها مضيق لقوام الابن ... فالوالد محتاج إلى كثير من الحزم يعرف به كيف يضع الأمور في أوضاعها الصحيحة ، فلا يجعل الشدة في موضع اللين ، ولا الرحمة في موطن القسوة ، ولكن نسي كلاكما أنه إنما يتحدث عن الشاعر ، وهو وحده الذي يستثنيه المجتمع من كل هذه القيود . فانتا لا نحتمل شابا يحدثنا عن مضاميراته القرامية ، ولكن إذا كان شاعرا أو صاغا لك مضاميرته في قصيدة فإنك لا شك تطرب لها وتعجب بها . وإذا كنت محبا فانك واجد في قصيدة الشاعر متفكرا عما يجيش بصدره وتشفق من إخراجة نثرا حرمنا على كرامتك إذا كنت أخا كرامة ، وكذلك الوالد الشاعر يقول قصيدته مبرة عن مشاعره نحو ابنه